تأمّلوا ايها السادة واحكموا لانفسكم . بلاد واسعة من اخصب بلاد الله في العمور ومن احسنها هواء وانقاها سماء وماء لا يزيد اهلها على المليونين ومع ذلك فقد هاجرها نحو من خمس سكانها وفي هولاء المهاجرين كثيرون من اطبائها وصيادلتها وكتبتها ومعلميها وصناعها من اقراهم بنيّة وأحدّهم قلباً وخاطراً . فلماذا هذه المهاجرة وما هو سببها ؟ انهُ ليس لذلك من سبب الاّ قلّة راس المال في البلاد عموماً واعوازهُ اولئك الذين هاجروا خصوصاً . نعم لو كان بين يدي الافراد او في البلاد راس مال ما هاجرها الطبيب ولا الصيدلي ولا الكاتب ولا المعلم . ومثل ذلك يقال في الصانع والعامل والفلاّح والزارع ومن سواهم من اهل الحرف المختلفة . وما معنى الافلاس الاّ ذهاب راس المال (ستأتي البقية)

جبر ضومط

تاريخ محمد علي باشا

حروب ابرهيم باشا

(تابع ما قبلهُ)

ختمنا الكلام في الجزء الاخير من السنة الماضية باخذ عكاء وقد فصّل المستر باركر[1] ذلك في كتابهِ فقال ان الدول المختلفة بعثت ثلاث عشرة سفينة حربية واربع سفن بخارية بقيادة الكومودور نبير والاميرال ستبفرد فضربت بيروت واخذتها في السادس عشر من سبتمبر سنة ١٨٤٠ واخذت صيداء في السادس والعشرين منهُ ثم اخذت طرابلس واللاذقية وشرع الاميرال ستبفرد في ضرب عكاء في الثالث من توفير من سفينتهِ المسماة فونكس والكومودور نبير من سفينتهِ المسماة بوزّفرل وأرسلت الزوارق في الليل السابق لسير غور البحر فوجدت انهُ يمكن ان تدنو السفن من الحصون فدنت منها اكثر مما قدّر قائد المدفعية في عكاء فانهُ كان قد حكّم المدافع حتى ترمي قنابلها الى ابعد من ذلك وكانت النتيجة ان قنابل عكاء كان تخرق حبال السفن وتقع وراءها واما قنابل السفن فدخلت الحصون والاستحكامات واضرمت فيها النار . وفي الساعة الرابعة اصابت مخازن البارود فاشتعلت ويقال انهُ قتل باشتعالها الفا نفس وفي الساعة السادسة بطل اطلاق المدافع من الجانبين وعند نصف الليل خرجت الجنود المصرية من عكاء فدخلتها جنود المتحالفين في الصباح ولم يقتل منهم سوى ثمانية عشر

(١) المستر باركر كان قنصلاً لانكلترا في مصر في عهد محمد علي باشا واقام في بلاد الشام زماناً طويلاً وابتنى له داراً في السويدية غرب انطاكية زارهُ فيها ابرهيم باشا لما كان في بلاد الشام

رجلاً وجرح اثنان واربعين لا غير

وقال الدكتور مشاقه في تاريخهِ انهُ لما استولت الدولة على عكاء ولّت احمد آغا اليوسف الكرداي على دمشق وارسلت معهُ الجنود ليطرد ابرهيم باشا منها فجاء الى قرية سعسع غربي دمشق وبلغ ابرهيم باشا خبرهُ فنهض لقتالهِ ومعهُ مدفعان وفرقة من الجند فكان النصر لهُ وانهزم احمد اغا بجنودهِ ومضى الى قرية البطرونة في نواحي الزبداني وهي على ٢٥ ميلاً من دمشق

وعاد ابرهيم باشا الى دمشق وعقد مجلساً من امراء عساكرهِ حضرهُ شريف باشا وبحري بك ورفع ابرهيم باشا الدعوى على بحري بك انهُ خائن لانهُ كاتب الاعداء فانكر بحري بك ذلك وطلب المجلس دليلاً على انهُ كاتب الاعداء إما كتابة بامضائهِ او دليلاً آخر يكفي لاثبات التهمة عليهِ فقال ابرهيم باشا انهُ يستحيل ان يسلما الاعداء كتابةً بعث بها بحري بك اليهم ولكن الدليل على ان لهُ ضلعاً معهم انهُ استأجر بيتاً لعيالهِ في محلّة النصارى وهذا يدلّ على انهُ مؤتمنٌ جانب الاعداء فاجاب بحري بك ان زوجتي حامل في الشهر الثامن وقد استأذنتُ افندينا في ابقائها عند اهلها فاذن لي في ذلك وها كم صورة الاذن منهُ . وابرز مرسوم الاذن من ابرهيم باشا ثم قال واذا شاء افندينا ان يلغي اذنهُ فاني احمل عيالي معي ولو هلكوا في الطريق . ثم انهُ لو كان لي اتصال بالاعداء ما كنت اقدّم غلالي للعسكر واحوّل ثمنها على خزينة مصر وابرز ورقة الحوالة . فحكم المجلس ببراءتهِ

قال الدكتور مشاقة والغالب على ظني ان الدعوى صورية أُقيمت على بحري بك تمهيداً لاقامة الدعوى على شريف باشا الى ان قال

ثم رفع ابرهيم باشا الدعوى على شريف باشا متهماً اياهُ باخيانة فتكلم بحري بك مدافعاً عنهُ فانتهرهُ ابرهيم باشا قائلاً ان هذا لا يعنيك وقد حضرتَ الى هنا لتحاكم لا لتدافع عن غيرك فصمت . وانكر شريف باشا التهمة فقال ابرهيم باشا اني امرتك بوضع الخفر على قنصل الانكليز ومنع اجتماعهِ بالناس فتركت لهُ باباً يدخل منهُ من يشاء وقد بلغني خبر ذلك وانا في لبنان فكيف لم يبلغك وانت في دمشق ثم ان فردوس بك اخا زوجتك دخل دمشق من قبل الاعداء واجتمعتَ بهِ في بيتهِ افما كان يجب عليك ان تقبض عليهِ

فقال شريف باشا ان فردوس بك لم يأتِ الى دمشق وانا كنت ازور اهل زوجتي كعادة الناس في ليالي رمضان

فقال ابرهيم باشا أشاع في دمشق مجيء فردوس بك اليها ام لم يشع . فاجاب شريف

باشا نعم شاع. فقال ابرهيم باشا ان عدم بحثك عن صحة الاشاعة وعدم نقلها اليَّ يثبتان معرفتك بجيشه الى دمشق وتعمُّدك كتمان ذلك لغاية تقصدها. فصادق المجلس على ذلك ثم قال لهُ ابرهيم باشا ان الذي يثبت اتفاقك مع الاعداء هو انك اردت ابقاء جميع نسائك في دمشق مع اني اذنت لك في ابقاء زوجتك الدمشقية عند اهلها واما سائر نسائك فمن حرم والدي فكان الواجب عليك ان تهتم بارجاعهنَّ الى مصر فاصررت على بقائهنَّ في دمشق. وكذلك قد اشتدَّت حاجتنا الى الحبوب والعلف بسبب اجتماع عساكرنا في دمشق وجميع الذين عندهم غلال من تبعتنا قد موها لنا واخذوا ثمنها فتحاويل على خزينة مصر وصدرت الاوامر بختمك الى جميع قرى الشام لتقديم الغلال بالثمن والذي يخزن غلالهُ وبيعها فتصاصهُ القتل وقد ذهبتُ بنفسي الى القرى ووجدتُ في بعضها مخازن غلة فشنقت اثنين من اصحابها وانت عندك مقدار كذا من الغلال مخزونة في المكان الفلاني فلم تقدمها فهل تريد ان تبقيها غنيمة لاعدائنا او انت مؤتمن جانبهم وهو الاصح

ولم يستطع شريف باشا ان يبرئ نفسهُ فأمر ابرهيم باشا بان يؤخذ سيفهُ منهُ وان يبقى تحت الحفظ في ثلة العسكر عند احد اركان حربيه مصطفى باشا ولا يسمح ان يقابلهُ احد الاَّ بحري بك

ثم تكرَّرت الاوامر الى ابرهيم باشا من والده ليعود الى مصر فلما كمل اجتماع عسكره في دمشق من حلب وبر الترك وزاد عددهُ على سبعين الفاً صمم على القيام من دمشق . وحينئذٍ استدعاني بحري بك وقال لي ان اخي جرمانوس متقدم في السن ولا يستطيع مشقة السفر براً في هذه الايام الشديدة البرد الكثيرة الامطار فاخفه عندك مع ولده الى ان تروق احوال البلد واحمد آغا اليوسف القادم الى دمشق حاكماً عليها من اخص اصدقائك فلا يعسر عليك ان تجمعي اخي وعائلتي بواسطته . وفي السادسة من ذي القعدة سنة ١٢٥٦ احضرت الخواجه جرمانوس ولدهُ باسيلا الى بيتي وفي الصباح شرعت الجنود المصرية تخرج من دمشق بطريق حوران وظلوا النهار كلهُ الى قرب الغروب حتى لم يبقَ منهم احد ووقف ابرهيم باشا في باب السراي ووقف حولهُ اعيان دمشق يودعونهُ فالتفت اليهم واوصاهم بحفظ الامن والراحة الى ان يحضر الوالي الجديد فوعدوهُ بذلك ثم ركب جوادهُ وسار في ساقة عسكره

وبقيتُ في بيتي اليوم التالي خوفاً من امر يحدث لان المدينة اصبحت من غير وال وعند الظهر قتل شاب مسيحي وهو ابن الصيدناوي واتهم اليهود بانهم اغروا احد شبان الميدان بقتله لانهُ اذاهم في حادثة البادري توما . وفي اليوم الثالث دخل احمد آغا اليوسف وتسلَّم الاحكام

ونادى بالامن وقتل اثنين من اشقياء الاكراد . ورأى بعض النصارى الذين كانوا يعتمّون بالعمائم البيضاء مدة حكم المصريين قد خلعوها واعتموا بالعمائم السوداء خشية من جهلة المسلمين فقال لهم جهاراً ان يعودوا الى العمائم البيضاء وانهُ ينتقم من كل من يعارضهم . وذهبت اليهِ وباركت لهُ واخبرتهُ عن الخواجه جرمانوس وابنهِ فقال ان معروفه بيت البحري معي ومع الجميع لا ينسى ابداً وانا احتفظ بهما كما احتفظ بنفسي ثم سلمني ورقة الامان لهما . انتهى

وعاد ابرهيم باشا بجنودهِ الى مصر فوصلها في اليوم الثاني من فبراير سنة ١٨٤١ بعد ان خلّف في بلاد الشام من الآثار والمآثر ما يذكرهُ بالشكر . ومن ذلك الوقت صرف محمد علي همهُ عن توسيع سلطتهِ الى اصلاح البلاد التي قبلت الدولة العلية والدول الاوريّة ان تبقى لهُ بعد ان اخذت منهُ كريت وسورية وبلاد العرب

وفي التاسع من ابريل سنة ١٨٤٧ وضع اساس القناطر الخيرية في احتفال حافل حضرهُ كبار رجال الحكومة ووكلاء الدول الاوربية ووُضع في احد حجارتهِ صندوق من الرصاص فيهِ وصف ذلك الاحتفال ونسخة من القرآن والنقود المصرية التي ضربت في عهدهِ وأُعطي ملعقة من الذهب ومطرقة من الفضة فوضع اساس البناء الذي جنت مصر منهُ اعظم الخيرات . لكن عضب دماغهِ كان قد كلّ وتولاّهُ الاعتلال وصار يحسب الذين حولهُ خوّنة يقصدون الايقاع بهِ فأُعطيت الولاية لابنهِ ابرهيم باشا وقضى نحبهُ في الثاني من اغسطس سنة ١٨٤٩ وعمرهُ ٨٣ سنة

وقد قابل المسيو ادون ده ليون ينهُ وبين بونابرت فقال "ان بين هذين الرجلين اتفاقاً غريباً في السيرة والاخلاق كلاهما كان غريباً عن البلاد التي اسّس فيها ملكهُ . وكلاهما كان جندياً بالحرفة وسياسيًّا بالفطرة . كلاهما كان واسع الحيلة شديد الصرامة يسعى الى نيل غرضهِ بأية واسطة كانت . وكان مطمح نظر كلٍّ منهما ان ينشئ دولة ويورث عرشها لذريتهِ فالحاوا من الغرابة ان ما اورثهُ الجندي الشرقي وهو اضعفهما جاء اثبت مما اورثهُ الجندي الغربي الذي كانت الملوك والممالك الاعيب في يدهِ . ولكي تتم المشابهة بينهما مات احدهما كمداً وهو محجور في جزيرة قاحلة ومات الاخر سجيناً في قصرهِ بعد ان تولاّهُ الخبال"

ولم تطل ولاية ابرهيم باشا سوى سبعين يوماً فتوفي قبل ابيهِ وكان قد زار ممالك اوربا قبل ولايتهِ ولقي من الاحتفال والابّهة في ايطاليا وفرنسا وانكلترا ما لا يلقاهُ الاّ اعاظم الملوك . وكانت وفاتهُ في العاشر من نوفمبر سنة ١٨٤٨ وهو في الستين من عمرهِ . فتوفي قبل ابيهِ بنحو تسعة اشهر والرجلان من اعاظم الرجال ونوابغ العصور